ضفة ثالثة
منبر ثقافي عربي

عمر شبانة

5 سنوات على رحيل رافع الناصري:جماليّات الحروفيّ والحفّار

24 نوفمبر 2018 فنون

بين الألوان والحفر والطباعة، ثمة مبدع من طراز رفيع ومختلف، فنًا وإنسانيةً، تعرّفنا عليه في أثناء إقامته في عمّان، وخلال عمله في دارة الفنون التي أقام فيها ورشته الفنية لسنوات، وأقام خلال ذلك عددًا من المعارض الفنية المتميّزة، ربما كان أبرزها ذلك المعرض الذي يستحضر المتنبي بقصائده، في مرحلة حفلت بمعارض لشخصيات مبدعين من وزن ابن زيدون وصولًا إلى محمود درويش، تجربة تراوح بين استلهام الشخصية وإبداعها وبين التماهي معها، كانت هي خاتمة رحلة غنية، زمنية ومكانية، للفنان المبدع رافع الناصري، الذي رحل في مثل هذه الأيام قبل خمس سنوات (7 كانون الأول 2013)، ويجري استحضاره اليوم، هنا، في مناسبة صدور كتاب "رافع الناصري: خمسون عامًا بين

الشرق والغرب / مقالات وحوارات" الذي جمعته وأعدّته وحرّرته زوجته ورفيقة مسيرته الشاعرة والناقدة مي مظفر، وصدر عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر.

هنا إضاءات على ملامح من المسيرة والكتاب.

ابتداءً، يأخذنا هذا الكتاب، عبر المقالات كما الحوارات، في رحلة تمتدّ بين ولادة رافع في تكريت (1940)، حتى رحيله في عمّان (في مثل هذه الأيام عام 2013). رحلة طويلة وعميقة وشديدة الشفافية، سواء عبر الحوارات أو المقالات، تمتدّ بين مكان ولادته وبين العوالم التي تجوّل أو عاش فيها، من الصين التي تعلّم فيها فنّ الحفر، مرورًا بفرنسا ولشبونة ولندن، وصولًا إلى مرحلة عمله مدرّسًا في جامعات العراق ثم اليرموك (الأردن) وجامعة البحرين، وما تنطوي عليه التجربة من هموم وقضايا، أكاديمية وفنية وإنسانية. فنحن هنا إزاء كاتب يكتب بحب، ومن ذاكرة تختزن الكثير من التجارب، يرويها في مقالاته وحواراته بقدر كبير من الشغف والتأثّر، وبروح شاعرية ليس عبر اللغة والصورة فقط، بل عبر كونه يتقمّص روح الفكرة والمكان، متنقلا بين الأمكنة كطائر اختار الحريّة.

ميّ ورافع: الشراكة

مي مظفر حاضرة في الكتاب، ليست كمحررة فقط، بل بوصفها شريكة حياة، شريكة في التجربة الفنية الممتدة أكثر من خمسين عامًا، فهي رفيقة السفر والمنفى والترحال والإقامة، وشِعرها أحد مصادر الإلهام، ونقدها هو أحد البوصلات الموجّهة للعمل الفنيّ. ومن هنا نبدأ بما تقوله ميّ عن رافع في تقديمها للكتاب، فهي خير من يعرف هذا الفنان، خصوصًا في الجوانب الشخصية، فضلًا عن الحياتية اليومية. تقول في تقديمها للكتاب "كان رافع الناصري شديد الحرص على توثيق إرثه الفني ليس فقط من خلال صور أعماله، وإنما بنصوص أدبية متنوعة لتكون شاهدا على مسيرة تجربته التي امتدت خمسين عامًا، بدءًا من أحلام صباه حتى استعادة ذكرياته، مرورًا بالمحطات الكثيرة التي قد يقف عند بعضها طويلًا ويتجاوز الأخرى. كما أسهم بالكتابة عن تجارب فنية عراقية وعربية، ضمتها كتبه الثلاثة التي صدرت في أثناء حياته. لقد كانت الكتابة لديه حاجة ملحة للتعبير بالصورة وبالكلمة أيضًا عن ذاته وعن آرائه ومواقفه".

ومن هنا يمكننا القول إن رافع وميّ لم يكونا مجرّد زوجين، أو صديقين فقط، فلقد كانا شريكين أسّسا في العراق، وأينما حلّا في العالم، علاقة إنسانية/ فنية لم تشهد الساحات الثقافية العربية سوى القليل منها. لقد تابعت مي مظفر تجربة الفنان منذ مراحل التأسيس الأولى، وهو ما يعطي الكتاب بعدًا هامًّا يتمثل في حضور ميّ، خصوصاً في حوار ثلاثيّ بينها وبين رافع وبين عادل كامل، الذي أراد الحوار "دردشة" تجمع الثقافيّ والاجتماعي، وتدخل في خصوصيّة العلاقة بين رافع وميّ، حيث يعلنان بخصوص الشراكة ما يشبه الشعار أو البوستر "**نختلف في بعض الأشياء، وأحلامنا واحدة**"، فهما قد يختلفان ويتفقان في بعض شؤون الحياة اليومية، كما في الذائقة والتلقي للأعمال الفنية التشكيلية، وللفنون عمومًا.

وفي حوارهما المذكور أعلاه مع عادل كامل، تتكشّف رؤية كل منهما إلى الآخر وإلى الفن والحياة، ومن ذلك إجاباتهما على أسئلة المُحاور حول بعض القضايا التفصيلية في "التجربة"، ففي حديثها عن إنتاج جديد للفنان، في مرحلة ما تقول مي "أعتقد أنها مرحلة جديدة، فيها وحشية غريبة عليه"، فيردّ رافع إنها "مسألة طبيعية للحالة النفسية التي أعيش فيها في الوقت الحاضر.. ربما بسبب حالتي الذهنية.. فأنا من النوع الذي لا أدّعي الأشياء. وعملي الفني يسيرني، ونادرًا ما أسيّره". وحول ما يحققه العمل الفنيّ للفنان يقول رافع "اللوحة جسر لكل السعادات الغامضة. اللوحة وجود".

عودة إلى البدايات

"عندما وضع أستاذنا جواد سليم تلك اليد البرونزية الرشيقة أمامنا، وقال: انحتوا مثلها بالطين. لم نكن نعرف أنها يد فنّاننا الكبير فائق حسن. كان ذلك هو الدرس الأول في الفن 1956. حدث ذلك في يوم خريفي جميل من عام في إحدى قاعات معهد الفنون الجميلة ببغداد". في هذه الفقرة القصيرة، يضع رافع الخط الأول في لوحة مسيرته الفنية، مسيرة ستنطلق بعد ذلك إلى الصين، هذه المحطة (ما بين

1959 و1963) يعتز بها الفنان بشدة، سواء بالأساتذة الذين تتلمذ عليهم، أم بالفنون الصينية وعلى رأسها الحفر والطباعة (الغرافيك) الذي برع به الصينيون من اختراعهم للورق. وإلى ذلك فثمة وقفات عميقة أمام المجتمع الصيني وحياته. لكن علاقته مع الفن الصيني بدأت قبل ذلك عندما شاهد معرضا للفنون الصينية عام 1959، وجعله انبهاره بهذه الفنون يختار الصين لدراسة الغرافيك، هنا نقرأ: أحببت الرسم الصيني التقليدي منذ ذلك الحين، وأدركت بأنه يختلف في كثير من الجوانب عن الفن الأوروبي، وعندما أصبحت أمارسه أثناء دراستي في الأكاديمية المركزية للفنون الجميلة في بكين (1959-1963) زادت محبتي وتعلقي به، لأنه ببساطة يمتلك كل العناصر الأساسية للفن الأصيل، بمعنى أنه يقوم ويستند بقوة على روحية الإنسان وعلى عنصري المكان والزمان، ويتوافق كليا مع فلسفة الحياة الشرقية وطرق رؤيتها للطبيعة والكون، وانسجامها مع مفردات الحساسيات البصرية.

المحطة التالية الأساسية والمهمة في مسيرته كانت في لشبونة، وجاءت في العام (1967) حين حصل على منحة زمالة للدراسة من كولبنكيان في إحدى المؤسسات الفنية التي يرعاها (محترف غرافورا). ففي هذا المحترف، كما يقول "أنتجت أفضل أعمالي الطباعية بالحفر على النحاس، وفي هذه الفترة أيضاً، اكتشفت الحرف العربي وجمالياته، واستخدمته في مواضيع تجريدية، فأصبح المنطلق الأساسي لكثير من أعمالي اللاحقة".

العلاقة بالمكان

ومن بين حوارات ومقالات وقضايا كثيرة، نختم بالعلاقة العميقة لرافع بالمكان، علاقة تبرز في الكثير من أعماله، وهي تبرز أيضًا في حواراته ومقالاته، ففي حوار معه أجراه الفنان البحريني عباس يوسف، يتحدّث الناصري عن كيفية تحقق مسألة المكان في عالمه التصويري؟ فيقول إن علاقة الإنسان بالمكان علاقة عضوية، تنشأ معه وتتطور وتتجذر بمرور الزمن. لكل إنسان مكانه الأثير إلى نفسه، وعادة ما يكون المكان الذي ولد فيه وترعرع. هذا مفهوم عام يكاد يكون قاعدة. المكان عندي جزء مهم من بحثي البصري، الذي هو بحث في الطبيعة والبيئة المحلية. ولأني أهدف إلى خصوصية في التعبير عن هذه الطبيعة والبيئة، يكون المكان عنصرا أساسيا لهذا التعبير، أحاول من خلاله إعطاء اللوحة انتماءها وهويتها، موظفا عناصر اللوحة المختلفة التي تخدم هذا الهدف، وهي الأشكال والرموز والألوان، إلى جانب روحية الفنان ومزاجه ساعة تنفيذ ذلك العمل. فذاكرة الفنان البصرية، والتي تتراكم فيها عشرات المشاهد من هنا وهناك، تفعل فعلها، وتتدافع على سطح اللوحة منذ اللحظات الأولى. الجزء الكبير منها تلقائي وغير مباشر، والبعض منه مقصود ومبرمج. وهنا تتداعى الأفكار والصور، ومنها يتجلى المكان في آخر المطاف. في معرضي الأخير "عشر سنوات.. ثلاثة أمكنة" تعاملت مع أمكنة عربية مختلفة هي العراق والأردن والبحرين، ولكل منها طبيعة مختلفة بعض الشيء، لكن البيئات متقاربة، فهي بيئة عربية في نهاية المطاف.